

التوحيد وبعث إرادة الإنسان

Monotheism and the resurrection of human will

زروخي الدراجي*، جامعة محمد بوضياف-المسيلة

drradjj.zerroukhi, University of M'sila

drradjj.zerroukhi@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2024/04/01 تاريخ القبول: 2024/11/21 تاريخ النشر: 2024/12/31

ملخص:

يجب أن نفهم أن التوحيد ليس مجرد إعلان أو إشهار، بل التوحيد يقتضي الإحسان والعدل، ويقتضي العمل والإنتاج من أجل نصرة عقيدة التوحيد، ويقتضي التفاعل مع الآخرين والاهتمام بهم والتفاعل مع مشكلاتهم، والتوحيد لا يسمح بالهوية المزيفة التي يناقض تصورها النظري واقعها العملي، ومجتمع لم يستطع أن ينقل عقيدته إلى غيره، ولم يبدع حضارة خاصة به ولم يملك طموحا إلى كونية قيمه، هو مجتمع بعيد عن مستوى الإسلام الكوني، وليس في مستوى عقيدة التوحيد.

كلمات مفتاحية: التربية، التوحيد، العقيدة، الإسلام، الكونية

Abstract:

We must understand that monotheism is not just a declaration or publicity, but rather monotheism requires benevolence and justice, and requires work and production in order to support the doctrine of monotheism, and requires interaction with others, caring for them and interacting with their problems, and monotheism does not allow a false identity whose theoretical perception contradicts its practical reality, and a society that has not He was unable to transmit his faith to others, and he did not create a civilization of his own and did not have the ambition to universalize its values. It is a society far from the level of universal Islam, and not at the level of the doctrine of monotheism.

Keywords: Education, monotheism, belief, Islam, universalism

1. مقدمة

شاع بين المسلمين اليوم اعتقاد بأن التوحيد يقتضي أن يؤمن الإنسان بأن كل شيء يسير وفق قضاء الله وقدره، وإذا أراد الله للشيء أن يكون كان والعكس صحيح، وأن الإنسان يسير تحت مشيئة الله، بل ذهب بعضهم إلى القول بأن التخلف الذي يصيب المجتمعات الإسلامية اليوم هو أيضا قضاء وقدر من الله، لذا على المسلم اليوم أن يرضى بهذا القدر المحتوم، وهذا يتنافى مع بناء الحضارة الذي أساسه حرية الإرادة وحرية التفكير، ويشوه صورة التوحيد، والحديث عن الحضارة والابداع الحضاري، وعن القيم والأخلاق لا يتم إلا بثمين قيمة التفكير، ذلك أن التفكير هو القيمة الحضارية الأولى، وهو الميزة الجوهرية التي تفصل الإنسان عن غيره من الكائنات ، والدين الإسلامي انفرد بتمجيده وتقديسه للتفكير واستخدام العقل ، وربط الإسلام التوحيد بالتفكير واستخدام العقل، فجعل من العقل شرطاً من شروط اعتناق الإسلام، واستدعى الإنسان لاستخدام عقله لاكتشاف حقيقة الله وتفرد بالوحدانية، وهذا ما سنفصل فيه من خلال العناصر التالية:

2. التفكير طريقنا إلى التوحيد

التوحيد هو الإيمان بإله واحد لا شريك له، وهو معرفة الله تعالى بالربوبية، والاقرار له بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة ويقتضي التوحيد أن لله كمالاً لا يؤت لغيره (جميل صليبا، 1994، ص 261، 260)

وعلم التوحيد هو أشرف العلوم على الإطلاق، لأنه يتعلق بمعرفة الله عز وجل، وما يجب له من الصفات، وما يستحيل عليه وما يجوز في حقه سبحانه وتعالى، وما يتبع ذلك من أمور النبوة والآخرة، والتوحيد هو أصل في الدين الإسلامي ، قال الله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ سورة محمد الآية 19 ، وفي هذه الآية تقديم التوحيد عن الاستغفار، لأن التوحيد هو الأصل، وتشير الآية إلى ضرورة العلم بهذا لا الاعتناق عن جهل، ولا يقبل استعفار أو طاعة من غير توحيد يقول عز وجل في كتابه الكريم ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ سورة النساء الآية 124 ، وقال تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ سورة

الفتح الآية 13، فلا يصح الإيمان بالله إن لم يقتزن به الإيمان برسوله محمد ﷺ مع التصديق بكل ما جاء به وأخبر به. (زروخي الدراجي، 2022، ص23)

وكلمة التوحيد هي أصل الدين وأساسه، وهي دعوة جميع الأنبياء والرسل، وقد بينت النصوص من الكتاب والسنة بيان معنى توحيد العبادة فقال عز وجل ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ سورة الصافات الآية 35، فلم يقرؤا بهذه الكلمة، وذلك لأنهم يعلمون معناها، إذ لو كان مجرد قول لا يلزم منه التخلص من جميع المعبودات والإقرار بالعبودية لله وحده لقالوها، ووصف المولى عز وجل هذا الصنف من الناس بقوله ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ سورة ص الآية 5، وبين المولى عز وجل أن ما يعبد هؤلاء المشركون من دون الله سبحانه وتعالى هو الباطل الذي يبلى ويفنى، ولا يفيد ولا يغني، وأن عبادته سبحانه وتعالى وحده هي الحق.

ورغم أن التوحيد فكرة كلية لا تتجزأ إلا أن بعض العلماء قسم التوحيد-تقسيماً بسيطاً لسهولة الفهم والإحاطة- إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي:

1.2. توحيد الربوبية

ويقصد بتوحيد الربوبية إفراد الله بأفعاله، وبعبارة أخرى يجب أن يعتقد المسلم بتفرد الله بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، والملك والتدبير، وسائر ما يختص به من أفعال، وقد كان هذا النوع من التوحيد واضحاً بيناً حتى لدى قريش قبل الإسلام. (جميل صليبا، 1994، ص261، 260)

2.2. توحيد الألوهية

معنى توحيد الألوهية هو الاعتقاد الجازم بأن الله هو الإله الحق ولا إله غيره وإفراده بالعبادة. والإله هو المألوه أي المعبود وتعرف العبادة لغةً بأنها الانقياد والتذلل والخضوع. فلا يتحقق توحيد الألوهية إلا بإخلاص المسلم العبادة لربه وحده في باطنها وظاهرها، بحيث لا يكون شيء منها لغيره، وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة، فمن لم يأت به كان من المشركين، وبهذا فإن تطبيق توحيد الألوهية يوجب التوجه إلى الله وحده بجميع أنواع العبادة والأعمال الصالحة. (زروخي الدراجي، 2022، ص23)

-توحيد الأسماء والصفات

وهو الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ من الأسماء الحسنى والصفات، كما يعني توحيد الأسماء والصفات اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت

العظمة، وذلك بإثبات ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته له رسوله محمد من الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة بالكتاب والسنة⁵. قال الله تعالى ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ سورة مريم الآية 65 ، وبهذا فرق الله تعالى بين ربوبيته، وعبادته، واسمه.

والتوحيد يعتبر فعل حضاري مقدس، لأن البحث عن خالق الوجود واكتشاف عظمته أمر قدسته الفلاسفات والحضارات والتوحيد يعطي قيمة لكل أفعال الإنسان، وفي غياب الإيمان والتوحيد يصبح وجود الإنسان عبثي لا قيمة له، ولا يمكن الحديث عن التوحيد والإيمان إلا بتقديس ملكة التفكير، وهذا ما أقره الإسلام يقول عز وجل ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الأعراف الآية 176

ويقول أيضا ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُجُومًا اثْنَيْنِ يُغِثِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الرعد الآية 3، فهذه الآيات تدعو الإنسان لإعمال العقل والتفكير والتأمل لمعرفة سنن الله في كونه واحكام الخلق.

ومرة أخرى يضرب لنا المولى عزوجل سورا سماها بمخلوقاته وكلف عباده بالتأمل في عجائب صنعه فقال عز من قائل ﴿يُنَبِّئُكُمْ بِهِ الرَّزْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل الآية 11، ويقول أيضا ﴿ثُمَّ كَلَّمْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْأَلْنَا رُبَّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل الآية 69.

ثم يدعونا المولى عزوجل إلى التأمل في أنفسنا فقال ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الروم الآية 21، وقال أيضا ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلَ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الزمر الآية 42، ويقول المولى تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ سورة الروم الآية 8.

وبعد التأمل في الأنفس يسخر لنا الله الكون لنمارس الحياة، فكان الإنسان أكثر قداسة من أي مقدس في الكون يقول عزوجل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿سورة الجاثية الآية 13﴾، وقال أيضا ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة الحشر الآية 21.

والبعد الأهم في التفكير والتوحيد يكمن في خشية الله يقول تبارك وتعالى ﴿يَقُولُ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ سورة آل عمران الآية 191

إن الآيات التي نتحدث عن وجوب التفكير لبلوغ حقيقة التوحيد كثيرة في القرآن الكريم ذكرت بعضها منها، ويمكن القول بأن التفكير سلوك حضاري محوري مقدس في النص القرآني، لأن التفكير الصحيح يقود الى التوحيد، والتوحيد لا يقوم في الذات إلا بنسق فكري صحيح، أما التفكير المضطرب الذي يقود إلى الجحود ونكران التوحيد رغم قيام الحجة في العقل على وحدانية الله فذاك فيه إهانة للعقل، وتهاون في حق الله يقول عزوجل ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ سورة المدثر الآيتين 18، 19.

وقداسة الإنسان في الإسلام مستمدة من ممارسته للتفكير المفضي إلى الإيمان وعقيدة التوحيد، وإعمار الأرض، وهو عين الفعل الحضاري، وأما ما عداه فقد يفضي إلى الهلاك. إن قيمة العقل تكمن في بلوغ الإنسان الحقيقة الكبرى التي قال عنها المولى عزوجل ﴿وَالِهَيْكُمُ إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة البقرة الآيتين 163، 164. والحقيقة الكبرى هي إدراك حقيقة الخالق من خلال إدراك حقيقة الخلق، فكلما كان فعل التعقل تاما كانت معرفتنا بالله أتم.

3. التوحيد وقدسية الآخر

على الرغم من قدم العلاقة بين الأنا والآخر وتنوع صورها بين الحب والعطف والاحترام والصدقة والقربة والإيثار والصراع والتنافس والعداوة، وعلى الرغم من كل الدعوات الكبرى إلى أداء واجب الضيافة ومساعدة الجيران والفقراء وحب الخير للآخرين واحترامهم إلا أن الإسلام كان سابقا ومقدسا لعلاقة الانسان بالآخر من خلال الربط بين التوحيد وهذه العلاقة، أي علاقة الإنسان بالإنسان، ولا توجد عبادة في الإسلام تفتقد إلى أبعادها الخلقية الواقعية يقول عزوجل ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا سُبُّ الْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي

الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿سورة النساء الآية 36﴾

يتضح جليا أن توحيد الله وافراده بالعبادة مرتبط ارتباطا ضروريا بالإحسان إلى الآخرين بغض النظر عن الانتماء، فالطاعة تجب للوالدين حتى وإن كانا على غير الإسلام إلا في حالة طلبهما للمعصية، ويأمرنا المولى عزوجل إن كنا نوحده ولا نشرك به شيئا أن نحس للجار أيا كانت عقيدته، وأن نهتم بالقريب واليتيم والمسكين وابن السبيل وإلا فإن التوحيد والإيمان يفقد معناه، وحرم الله الجنة على من لا يتضامن ويؤذي جاره، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به" رواه الطبراني في الكبير، وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه" متفق عليه، بمعنى أن الجنة محرمة على كل جار يؤذي جاره، ولا يقوم إيمان أو توحيد مع هذا الخلق الذميم.

إن عملية تكوين الذات أمر يتوقف على ما يسميه بالتبادلات التفاعلية بين الناس، فمن خلال العلاقات التداوتية التي تقام بين الفرد والآخرين، وما تتضمنه هذه العلاقات من أشكال التعامل الذي يكتسب الفرد وعيه بذاته، وبكيفية تحقيقها من خلاله، وهذا يفترض دائما وجود الآخر، ومن ثم يمكننا القول انطلاقا من هذا المنظور بأنه لا يمكن تحقيق وجودنا إلا من خلال الاعتراف بالآخر، ومن خلال علاقتنا وتفاعلنا معه، فنحن نكتشف قيمتنا ووجودنا وقوتنا وضعفنا فقط أثناء التفاعل مع الآخر يقول عزوجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿سورة الحجرات الآية 13﴾. ويقوم خطاب تقديس الآخر في الإسلام على مجموعة من الأسس يمكن ايجازها في العناصر التالية:

1.3. المحبة والألفة

المحبة علاقة تفاعلية مؤسسة على نموذج خاص للاعتراف المتبادل، وهذا يعني أن هناك علاقة متداخلة بين العلاقات العاطفية وقدرة الفرد على الشعور بقيمة أو مكانته التي تجعله يثق في نفسه. (كمال بومنير، 2013، ص 32)

وعزز الإسلام علاقة الحب بين الناس، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" رواه البخاري، وأي تقديس أكبر من أن تكون المحبة بيننا كمحبتنا لأنفسنا، وتأسيس الحضارة يمر من هذا التماسك بين الذات والآخر.

كما يدعو الإسلام إلى التفاعل الإيجابي بين الناس، فعن جابر قال قال رسول الله ﷺ "المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس" رواه الطبراني في الأوسط، فالألفة هي التي تؤسس للتواصل الحضاري الذي هو عملية أخذ وعطاء للمعاني بين شخصين، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف لضعف إيمانه وعُسر أخلاقه، وسوء طباعه. والألفة سبب للاعتصام بالله وبحبه، وبه يحصل الإجماع بين المسلمين وبضده تحصل التفرقة بينهم، وإنما تحصل الألفة بتوفيقٍ إلهي.

وما يخلق الألفة بين الناس هو حسن الأخلاق، وسهولة الطباع والرفق واللين، فالنفس المحبة دائماً تكون مستعدة للدخول في علاقة مع الآخر والتخاطب معه مهما كانت نتائج هذا الخطاب.

2.3. الحق

الحق اسم من أسماء الله الحسنى وجاء الحق كعلاقة بين الناس ليضبط المحبة والألفة بينهم، وحتى لا تكون عبثية في العلاقات وينتشر التهاون بين الناس قال عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ سورة النحل الآية 90، فالحق والعدل ينظم علاقة الحب والأخوة بيننا حتى يكون التواصل والتفاعل ايجابيا.

ويمثل الحق الشكل الثاني من أشكال التآلف المتبادل بين الذوات وهذا على المستوى القانوني، فالتآلف القانوني هو الذي يضمن حرية الأفراد واستقلالهم الذاتي، وهذا يحيلنا في الواقع الأمر إلى ما يسمى بالحقوق الفردية، إذ أن هذا مبرر وجود هذه الحقوق نفسها التي تحقق هذا الغرض الأساسي، غير أن القانون الإسلامي يسمح بذلك في إطار الاعتراف المتبادل الذي يفترض المسؤولية الأخلاقية على كل أعضاء المجتمع. (أكسل هونيث، سنة 2012، ص 59)

والحق المقصود هنا هو الحق المدني والاجتماعي والسياسي الذي تمنحه المؤسسات، فالمحبة والألفة في الإسلام قائمة على أساس مسؤولية مدنية ومسؤولية أخلاقية، وكان الألفة قرار أخلاقي متبوع بقرار سياسي وهذا ما يظهر في قوله عز وجل ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ سورة البقرة الآية 179 فإن قامت المسؤولية الأخلاقية كنا في غنى عن القصاص، الذي يحل محل المسؤولية المدنية السياسية، وإن لم تقم هذه المسؤولية الأخلاقية كان القصاص بديلا تنظيميا للمجتمع حفظا للأرواح والأموال والأعراض.

3.3. التعاون

التعاون الاجتماعي يعزز الألفة بين الناس في نظر الدين الإسلامي وهو الذي يسمح للأفراد بتحقيق ذواتهم من خلال علاقات التفاعل المتبادلة، غير أن التعاون قد أصبح في المجتمعات الحديثة يتوقف على وجود علاقات التقدير المتماثل بين الذات التي حققت استقلالاً ذاتياً.

والملاحظ أن شعور المرء بالتقدير يتوقف على الآخرين أو تقدير الغير، وعندما يحصل على هذا التقدير يستطيع تحسين صورته إلى ذاته بصورة ايجابية، لأنه يتأثر بصورة كبيرة بمواقف الآخرين، لكن الأفراد يحصلون على التقدير الاجتماعي والأخلاقي بقدر ما يقدمونه وما ينجزونه من أعمال لها قيمة في نظر الآخرين أو بالأدوار التي يقومون بها في المجتمع لكن الإسلام جعل التعاون منزهاً عن أية غاية أو مصلحة دنيوية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرَعْ بِهِ نَسَبُهُ" رواه مسلم، وفي هذا الحديث تبيين للتعاون بين الناس، والتعاطف بينهم وتقديم يد العون لهم، ولا شك أن التعاون والتضامن صفة حضارية وفعل من أفعال الحضارة ومطلب إنساني سبق إليه الإسلام وشجع عليه، يقول عزوجل ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ سورة المائدة الآية 2 فالتعاون في الإسلام هو أن يعين المسلمون بعضهم بعضاً قولاً وفعلًا، بل إن مد يد العون لا تتوقف على المسلم اتجاه المسلم بل تتعدى إلى غيرهم من أهل الملل الأخرى يقول عزوجل ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ سورة الممتحنة الآية 8

ويشترط الإسلام في التعاون مع الآخرين اخلاص النية لله فنحن نساعد الغير ابتغاء مرضات الله عزوجل، إنها التضحية من أجل الآخرين بالمبدأ الموجه للفعل، فهي سلوك قصدي وإرادي ينجز من أجل منفعة شخص آخر بعيداً عن منفعتنا الخاصة وعن توجهنا الأيديولوجي، يقول عزوجل ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ سورة الانسان الآية 9.

وفي هذا السلوك الحضاري الذي يحمل التنزيه في تعاملنا مع الآخر تتجلى القدرة على تبني أخلاق الاعتراف بغيرية الآخر واحترامه وليس في محاولة اختزاله في هوية الشبيه.

ومن هنا يمكننا القول بأن هذه الأشكال الثلاثة فيها تامين لعلاقة المسلم بغيره، فالمحبة والألفة تحقق الثقة بالنفس، والطمأنينة والحق يحقق احترام الذات، وأخيرا التعاون الذي هو أساس تقدير الذات.

والملاحظ أن الغاية من أخلاق الغيرية والإحسان إلى الآخر في الإسلام هي تحقيق وجود الذات لا تحقيق وجود الآخر، بمعنى أن الاعتراف بالآخر والتعاون معه هو مرحلة ضرورية لتحقيق الذات المسلمة الموحدة، ومثل هذه القيم كفيلة بإنهاء الصراع الاجتماعي القائم بين الذوات، وتحويله إلى تنافس وتعاون ومحبة وتضامن، وهو ما يسعى إليه الإسلام.

ولم يقدس الإسلام علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بالإنسان فقط، بل قدس الإسلام علاقة الإنسان بالحيوان والنبات والبيئة بصفة عامة، فقد نهى رسولنا الكريم ﷺ عن العبث بالبيئة وعن قتل الحيوان دون وجه مصلحة أو منفعة وهذا ما يظهر في قوله ﷺ "ما من إنسان قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأل الله عز وجل عنها. قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها يرمي بها" رواه النسائي، والوعيد الوارد في هذا الحديث يشمل قاتل الحيوان الذي يؤكل لحمه، والذي لا يؤكل لحمه، ومن فعل ذلك فعليه أن يتوب إلى الله ويستغفره، ويتقرب إليه بما استطاع من أعمال الخير والنوافل.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن النبي ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال "مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ سَرَفٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتُ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ" رواه الإمام أحمد وابن ماجه. هذه الأحاديث وغيرها كثير تدل على أهمية فلسفة القيم في الإسلام وشموليتها للبيئة، وكل هذا مرتبط بعقيدة التوحيد، لأن التوحيد ينظم علاقة الإنسان بربه وعلاقة الإنسان بغيره.

4. التوحيد وبعث إرادة الإنسان

شاع بين المسلمين اليوم اعتقاد بأن التوحيد يقتضي أن يؤمن الإنسان بأن كل شيء يسير وفق قضاء الله وقدره، وإذا أراد الله للشيء أن يكون كان والعكس صحيح، وأن الإنسان يسير تحت مشيئة الله، بل ذهب بعضهم إلى القول بأن التخلف الذي يصيب المجتمعات الإسلامية اليوم هو أيضا قضاء وقدر من الله، لذا على المسلم اليوم أن يرضى بهذا القدر المحتوم.

إن هذا النوع من التفكير فيه مبلغ الخطورة على التوحيد والنهضة وإعادة إحياء الحضارة.

ويذهب البعض في شلهم للإرادة الإنسانية إلى الاستشهاد ببعض النصوص القرآنية المعزولة عن سياقها، لذا يقتضي منا التوحيد أن نفهم علاقتنا مع الله، وندرك حدود ارادتنا في علاقتها مع

الإرادة الإلهية، ويجب أن ندرك حدود قوتنا وهمتنا في صنع مصيرنا وإلا انتقلنا من التوحيد المفضي إلى التوكل إلى الشرك المفضي إلى التواكل، وهذا ما بينه ابن تيمية في الكثير من المواضع مؤكداً على أن بعض العلماء لم يميزوا بين التوكل والتواكل، ولم يدركوا أن الله بريء من أفعال البشر، وانطلق ابن تيمية لإثبات حرية الإنسان وقدرته على استخدام إرادته في صنع أفعاله من قوله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. إن في هذه الآية دلالة قاطعة أن الإنسان هو الذي يعمل والله يجازي وفقاً لعمل الإنسان، وهذا ما يظهر في قوله عز وجل ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مَيِّ هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ وهذا ما يوضحه الحديث الشريف "الراحمون يرحمهم الرحمان" (ابن تيمية، دت، ص424)

هذه الآيات والأحاديث تدل دلالة قاطعة على أن الإرادة الإنسانية هي التي تفعل وتقرر، وهي التي تصنع النجاح والفشل لكن الإنسان يبقى فقيراً إلى الله فالتوفيق دائماً منه عز وجل، لكن الله لا يصنع أفعال العباد، لذا فإن الرجل في الدنيا يجزى على ما فعله من خير الهدى، وهذا ما يفتح عليه هدى آخر، ولهذا قيل من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، فتوفيق الله يكون نتيجة لأفعال الإنسان، كما أن الجنة والنار هي نتيجة أفعال الإنسان والفشل في الحروب والدراسة هي نتيجة أفعال الإنسان أيضاً، والله يخذل الإنسان انطلاقاً من أفعاله.

وفصل ابن تيمية بين التوكل والتواكل، ويحدد دائرة الإرادة الإنسانية والإرادة الإلهية، وينطلق في ذلك من الحديث القدسي "يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أُطْعِمُكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ"، بين ابن تيمية أن هذا الحديث يدل على وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة، وأنه لا يقضي غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك، ولهذا قال عز وجل ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقال أيضاً ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ فالمأمور به هو المقدور للعبادة. (زروخي الدراجي، 2022، ص24)

إذن كل ما أمرنا به الله نحن قادرون عليه، أمرنا الله بتغيير المنكر وفعل الخير ومجاهدة النفس وصناعة القوة باختلاف ميادينها وأمرنا بإعلاء راية الله، وأمرنا بالعدل والإحسان وأمرنا بتحرير أرضنا وصيانة عرضنا من الأعداء هذا كله في إرادتنا وبمقدورنا.

يظهر جلياً أن الإسلام يرفع من شأن إرادة الإنسان، وهذا ما يظهر في قوله عز وجل ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ﴾. وقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا

أَنْطُعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ. ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به لا ينافي وجوب التوكل على الله، والقول بإرادة الإنسان لا يتعارض مع القضاء، بل إن الحاجة إلى الله واجبة والسعي والعمل بأخذ السبب فيه طاعة لله وتوحيد له.

ومن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من توكل، ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب وحدها، وهذا ما يظهر في قوله عز وجل ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. هذا وأن من أخذ يدخل في التوكل تاركاً لما أمر الله به من أسباب فهو أيضاً جاهل ظالم عاص لله وبعيد عن التوحيد، ويترك ما كلفه الله به، فإن فعل المأمور به عبادة لله، وقد قال تعالى ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، فليس من فعل شيئاً أمر به وترك ما أمر به من توكل بأعظم ذنباً ممن فعل توكلأً أمر به، وترك فعل ما أمر به من السبب، إذن كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه، وفقهه للتوحيد يشوبه نقص وغلط، وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم وقد يكون الآخر مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب. (ابن تيمية، دت، ص428)

وقبل أن يلجأ الإنسان إلى قدرة الله عليه أن يأخذ بكل الأسباب وينفق جل طاقته. فإذا نفذت الطاقة وأخذ بكل الأسباب لجأ إلى قدرة الله، فالرسول عليه الصلاة والسلام يوم خرج مهاجراً أخذ بكل أسباب النجاة المعروفة، ويوم حبس في غار حراء ونفذت طاقته لجأ إلى قدرة الله التي ليس فوقها قدرة.

ونحن اليوم مطالبون بكملة تميز بعقيدة التوحيد أن نؤسس ونرسم خطة نهض ونبني بها حضارة تدل على عقيدة التوحيد التي ندين بها، ونفعل بإرادة حرة راجين من المولى عز وجل التوفيق وأنذاك لن يخيبنا الله.

والملاحظ اليوم أن الآخذين بالأسباب لم يفرقوا بين ما هو أخلاقي وبين ما هو غير أخلاقي، فجعلوا الغش أحد أسباب النجاح وجعلوا الرشوة أحد وسائل الفلاح، والكذب وسيلة تبررها غايتها واختلط بالأذهان مفهوم التعاون والتهاون، والربح والغش، والفتنة والحق، وغاب الدين عن الحياة وشتت الإرادة وحكمنا بغيرنا، بعد أن كنا نحكم بغيرنا، وفي كل هذا تشويه للتوحيد الذي هو عهد التزمنا به مع الله.

وروى أبو داود في سننه أن النبي ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضي عليه حسبي الله ونعم الوكيل فقال ﷺ إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل، وفي صحيح المسلم عن أبي هريرة ؓ أن الرسول ﷺ قال " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من

المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان". (زروخي الدراجي، 2022، ص26)

إن المؤمن مطالب بالعمل الجاد والحرص على النجاح وفق إرادة قوية قبل أن يتحسر على ما كان منه، ولقد أصبح قضاء الله وقدره حجة الكثير من الناس ليس فقط لتبرير فشله، ولكن حتى لتبرير معصيته وخروجه عن طاعة الله، ولقد فصل ابن تيمية هذا الأمر تفصيلاً محكماً اعتماداً على ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال "كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا سألوا الناس فقال الله تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾". فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجاً كان مطبقاً إلى التزود، فهو ملتفت إلى الجملة، لكن إذا كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود بالمأمور به، وفي هذه النصوص بيان غلط الطوائف فطائفة تضعف أمر السبب بالمأمور به فتفقدته نقصاً أو قدحاً في التوحيد والتوكل، وإن تركه من المال التوكل الوحيد، وهم في ذلك ملبوس عليهم، وقد يقرن بالغلط (إتباع هدى في إخلاد إلى البطالة).

ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك، فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخالق رغبة ورهبة وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلونه من العفو في التوكل واجبات ومستحبات أنفع لهم من ذلك، كمن يصرف همه في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نيل رزقه بلا سعي، فقد يحصل ذلك لكن كان مباشرة الدواء الحقيقي والسعي اليسير، وصرف تلك الهمة والتوجه في عمل صالح أنفع له، بل قد يكون أوجب عليه من تحصيل هذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه، وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضاً نقصاً وهذا غير لائق، وقد قال الله في الحديث القدسي "كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعَمَكُمْ". وقال فاستكسوني أكسكم وفي الطبراني وغيره عن النبي ﷺ قال " ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله وإذا انقطع فإنه إن لم يسره لم يتيسر".

وقد غلطت طائفة من حيث ظنوا أن سبق التقدير يمنع أن يكون بالسبب والمأمور به كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة بناءً على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة، ولم يعلم أن القدر سبق بالأمر على ما هي عليه، كما قد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال في حديث عن بن أبي طالب وعمران بن حصين وسراقبة ابن جعشم وغيرهم ومنه حديث الترمذي حدثنا بن أبي عمر حدثنا سفيان عن الزهري عن أبي حزيمة عن أبيه قال سألت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله رأيت

أدوية ننداوى بها ورقى نستترقي بها وتقاه نتقمها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال " هي من قدر الله ".
(ابن تيمية، دت، ص436)

وطائفة تظن أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة لتقربه إلى الله بالنوافل كذلك قولهم في أعمال القلوب كالحب والرجاء والخوف والشكر ونحو ذلك وهذا ضلال مبين ، بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان، ومن تركها بالكلية فهو إما كافر وإما منافق، وهذا يتنافى مع التوحيد، ولكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة، فمنهم من ظلم نفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات، وليس لهؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علماً وعملاً بأقل من التاركين كما أمروا به من أعمال ظاهرة مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال، بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة، والأمور الظاهرة لها أصولها وفروعها التي لا تتم إلا بها، والكثير من الناس ضلوا في فهمهم لبعض الآيات التي تتكلم عن الهداية، وظنوا أن الضلال والإيمان التي يحصلها الإنسان من خلق الله وليس من خلق الإرادة الإنسانية، ويعتبر ابن تيمية الأمر على النحو التالي :

أن الحق الذي جاءت به الشريعة إذا حمد الإنسان وأحسن شكر نعمة الله عليه بأن جعله محسناً، ولم يجعله مسيئاً، كما يظهر قول أهل الجنة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾.

وإذا شاء الإنسان عليه أن يعترف بذنبه ويستغفر ربه كما جاء في قوله عز وجل ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وهذا على عكس ما ذهب إليه إبليس عليه اللعنة الذي نفى التهمة والضلال عن نفسه ونسبها إلى الله، وهذا ما يظهر في قول البارئ ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. ولا يحتج بالقدر على تلك الأمور لفعل محذور مع إيمانه بالقدر خيره وشره، وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ونحو ذلك، وهؤلاء هم الذين أطاعوا الله في قوله في هذا الحديث الصحيح "فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"،

ولكن بسط ذلك وتحقيق نسبة الذنب إلى النفس مع العلم بأن خالق أفعال العباد في أسرار ليس هذا موضعها ومع هذا فقوله تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ لَئِنْ كَادُوا يَقْفَهُونَ حَدِيثًا. مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، ليس المراد بالحسنات والسيئات في هذه

الآية الطاعة والمعاصي كما يظن من يحرف بعضهم القرآن من نفسه. (زروخي الدراجي، 2022، ص28)

ومعلوم أن معنى هذه القراءة يناقض القراءة المتواترة، وحتى يضمم بعضهم القول على وجه الإنكار له، وهو قول الله الصديق الذي يحمد ويرضى، قولاً للكافر يكذب به ويدم ويستحفظ بإضمار الباطل الذي يبيعه من غير أن يكون في السياق ما يدل عليه، ثم إن من يجعل هؤلاء ظنهم أن في هذه الآية حجج القدرية واحتجاج بعض القدرية بها، وذلك أن لا خلاف بين الناس في أن الطاعات والمعاصي سواء من جهة القدر، فمن قال أن العبد هو الموجد لفعلته دون الله أو هو الخالق لفعله، وأن الله لم يخلق أفعال العباد، فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية، ومن أثبت الخير أو نفاه أو أمسك عن نفيه وأثبتته مطلقاً وفصل المعنى أو لم يفصله، فلا فرق عنده بين الطاعة والمعصية.

فتبين أن إدخال هذه الآية في القدر في قمة الجهالة، وذلك أن الحسنات والسيئات في الآية المراد بها المسار والمضار دون الطاعات والمعاصي، كما في قوله تعالى ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهو الشر والخير في قوله ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾، فهذه حال فرعون ومثله مع موسى ومن معه كحال الكفار والمنافقين والظالمين مع محمد وأصحابه (إذا أصابهم نعمة وخير قالوا لنا أو قالوا هذه من عند الله وإن أصابهم عذاب وشر تطيروا بالنبي وقالوا هذه بذنوبهم وإنما هي بذنوب أنفسهم لا بذنوب المؤمنين). (ابن تيمية، دت، ص439)

وهو سبحانه ذكر هذا في بيان حال القاعدين عند الجهاد الذين يلومون المؤمنون على الجهاد فإذا أصابهم نصر قالوا هذا من عند الله وإن أصابهم محنة قالوا هذه من عند الذي جاءنا بالأمر والنهي والجهاد قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلُمُونَ فَتِيلًا﴾ إلى قوله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي بسبب أمرك ونهيك قال تعالى ﴿فَمَا لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ وقال تعالى ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وأما القسم الثالث في هذا الباب فهم قوم لبسوا الحق بالباطل، وهم بين أهل الإيمان وبين شرار الناس، وهم الخائضون في القدر بالباطل، فقوم يرون أنهم هم الذين يهدون أنفسهم ويضلونها ويوجبون لها فعل الطاعة والمعصية بغير إعانة وتوفيق للطاعة ولا خذلان في المعصية، وقوم لا ينسبون لأنفسهم فعلا وقدرة ولا أمراً فمن هؤلاء من يتخل عن الأمر والنهي فيكون أكفر الخلق، وهم في احتجاجهم بالقدر متناقضون، إذ لا بد من فعل ما يحبونه وفعل ما يبغضونه، ولا بد لهم من دفع الضرر الحاصل بأفعال المعتدين ولذا جعلوا الحسنات والسيئات سواسية، ولم يذموا أحداً ولا يدفعوا ظالماً ولا يقابلوا مسيئاً، وأن ينجوا للناس من أنفسهم كل ما يشبه مشينة التي لا يعيش عليها بنو آدم، إذ هم مضطرون إلى شرع في أمر ونهي أعظم إلى اضطرارهم إلى الأكل واللباس، فتخلوا بذلك عن واجبه وهؤلاء سر انهيار الإسلام ومبعث تخلف المجتمع الإسلامي حضارياً وسياسياً واقتصادياً، وبقي التوحيد لدى هؤلاء الناس مجرد مصطلح نظري يفتقد إلى أبعاده الحقيقية التي أرادها الإسلام والتي بينها من قبل. (ابنتيمية، دت، 443)

ما أحوجنا اليوم إلى فهم هذه الحقائق وإلى إدراك قدرة الإرادة الإنسانية ودورها في التأسيس الحضاري وتفعيل عقيدة التوحيد وبعث قوة الإنسان، وتنشيط قدراته، وترسيخ ثقته في نفسه لصنع المجد وتقدير المصير، وأن الأوان لاتخاذ الأسباب، لأنها السبيل لنيل ما عند الله من فضل ومجد، وفي ذات الوقت هي السبيل لصنع الحضارة التي تعتبر واجب إسلامي على كل فرد مسلم موحد، لقد استكان المسلمون وتخلفوا عن الركب الحضاري وهم واهمون بأن الله قدر لهم هذا، لكن الواقع يجب أن يفهم بالعكس فقد تولى عنا الله يوم عرف أن العجز والكسل كامن فينا، وليعلم المسلمين اليوم أن الله لن يغير ما بهم ما لم تحيا فيهم الإرادة والعزيمة، ولن ينالوا توفيقهم إلا بطاعته، واتخاذ أسباب النصر، وما نملك أن نقول عن حالنا اليوم إلا أن الله بريء ونحن المذنبون، وفهمنا السلي للتوكل على الله منعنا من الإبداع الحضاري، وجعلنا في ذيل الترتيب، ولم نكن في مستوى عقيدة التوحيد.

5. خاتمة

بناء على ما سبق يجب علينا أن ندرك بأن التوحيد ليس مجرد إعلان أو إشهار، بل التوحيد يقتضي الإحسان والعدل، ويقتضي العمل والإنتاج من أجل نصرة عقيدة التوحيد، ويقتضي التفاعل مع الآخرين والاهتمام بهم والتفاعل مع مشكلاتهم، والتوحيد لا يسمح بالهوية المزيفة التي يناقض تصورها النظري واقعها العملي، ومجتمع لم يستطع أن ينقل عقيدته إلى غيره، ولم يبدع حضارة خاصة به ولم يملك طموحاً إلى كونية قيمة، هو مجتمع بعيد عن مستوى الإسلام الكوني، وليس في مستوى عقيدة التوحيد.

6. قائمة المراجع

- هونيث أكسل: التشيؤ، 2012، دراسة في نظرية الاعتراف، تر: كمال بومنيير، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- ابن تيمية، دت، الفتاوى الكبرى، المجلد 1، دار المعارف، بيروت.
- بومنيير كمال، 2013، إتيقا الاعتراف عند أكسل هونيث، مجلة ممارسات، المجلد 1، العدد 1، ص 20-52
- زروخي الدراجي، 2022، كونية القيم و قدسية الفعل الحضاري في الإسلام، منشورات مخبر الدراسات الأنثربولوجية والمشكلات الاجتماعية جامعة محمد بوضياف-المسيلة، الجزائر.
- صليباجميل، 1994، المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت.